5، 6- الحداثة الشعرية

تمهيد حول مفهوم الحداثة:

حين بحثنا عن مفهوم الحداثة وجدنا في الموسوعة العالمية ما يمكن اعتباره تعريفا لها: " ليست الحداثة مفهومًا اجتماعيًا ولا مفهومًا سياسيًا ولا مفهومًا تاريخيًا بشكل صحيح. إنه نمط حضاري مميز ، يتعارض مع نمط التقاليد ، أي مع كل الثقافات السابقة أو التقليدية: في مواجهة التنوع الجغرافي والرمزي لهذه الثقافات، تفرض الحداثة نفسها كوحدة متجانسة ، تشع عالميًا من الغرب"

إذا فالحداثة ليست حكرا على الأدب بصفة عامة أو الشعر بصفة خاصة، ولكنها تمتد لتشمل جميع مناحي الحياة إنها تصور جديد للحياة يقوم على التصادم مع الماضي " على الرغم من الاختلاف بين الكثير ممن أرخوا للحداثة الأوربية حول بدايتها الحقيقية، وعلى يد من كانت فإن الغالبية منهم يتفقون على أن تاريخها يبدأ منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي على يدي بودلير، وهذا لا يعني أن الحداثة قد ظهرت من فراغ، فإن من الثابت أن الحداثة رغم تمردها وثورتها على كل شيء، حتى في الغرب، فإنها تظل إفرازا طبيعيا من إفرازات الفكر الغربي، والمدنية الغربية التي قطعت صلتها بالدين على ما كان في تلك الصلة من انحراف، وذلك منذ بداية ما يسمى بعصر النهضة في القرن الخامس عشر الميلادي، حين انفصلت المجتمعات الأوربية عن الكنيسة، وثارت على سلطتها الروحية التي كانت بالفعل كابوسا مقيتا محاربا لكل دعوة من العلم الصحيح، والاحترام لعقل الإنسان"

ويذهب عوض القرني إلى أن فكرة الحداثة الغربية تسربت كغيرها من التيارات الفكرية إلى ثقافة الكتاب العرب "والواقع أعظم شاهد على أن الحداثة العربية ابن غير شرعي للمفكرين الغربيين، منذ "بودلير"، و"إدجار آلان بو"، حتى يومنا هذا ويكفيك للتأكد من ذلك أن تتصفح أي منشور حداثي، شعرا أو رواية أو مسرحية أو قصة أو دراسة نقدية، لتجدها تصرخ بقوة، وتعلن أنها من نبات مزابل الحي اللاتيني في باريس، أو أزقة سوهو في لندن، عليها شعار الشاذين من أدباء الغرب الذين لا يكتبون أفكارهم إلا في أحضان المومسات أو أمام تمثال ماركس"

يتفق أدونيس مع وجهة نظر الغربيين في تعريف الحداثة ومجالاتها المتنوعة بحيث يقسم أدونيس الحداثة إلى أنواع الحداثة العلمية، وحداثة التغييرات الثورية التي تشمل الاقتصاد والاجتماع والسياسة، ثم الحداثة الفنية والحداثة بهذه الأنواع تشترك في أنها " رؤيا جديدة، وهي جوهريا، رؤيا تساؤل واحتجاج:

تساؤل حول الممكن، واحتجاج على السائد. فلحظة الحداثة هي لحظة التوتر أي التناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع، وما تتطلبه حركته العميقة التغييرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها".

الحداثة الشعرية العربية:

يرى **أدونيس** بأن الحداثة من خلال نظرة العرب إلى "الإحداث" و"المحدث" قد بدأت منذ العصر الأموي" إن الحداثة في المجتمع العربي بدأت كموقف يتمثل الماضي ويفسره بمقتضى الحاضر. يعني ذلك أن الحداثة بدأت، سياسيا، بتأسيس الدولة الأموية، وبدأت فكريا، بحركة التأويل. فقد كانت الدولة الأموية نقطة الاصطدام الأولى بين الدين (العربي) والثقافة غير العربية: الآرامية – السريانية (الشرقية)، من جهة، والبيزنطية –الرومية (الغربية) من جهة ثانية". هذا على الصعيدين السياسي والفكري أما على الصعيد الفني فإن الحداثة الشعرية بدأت في العصر العباسي بظهور تيار فني " يهدف إلى الارتباط بالحياة اليومية، كما عند أبي نواس، وإلى الخلق لا على مثال، خارج التقليد وكل موروث، كما عند أبي تمام"

" هكذا تولدت الحداثة، تاريخيا، من التفاعل أو التصادم بين موقفين أوعقليتين، في مناخ من تغير الحياة، ونشأة ظروف وأوضاع جديدة. ومن هنا وصف عدد من مؤسسي الحداثة الشعرية بالخروج."

يرى أدونيس أن الحداثة تنشأ حين التفاعل والتصادم بين الشعوب والثقافات، وهي لذلك قديمة عند العرب تعود إلى القرن الثامن الميلادي الذي حدث فيه هذا التصادم والتفاعل بين العرب والشعوب الأخرى التي دخلت في الإسلام " ما الحداثة في هذا المستوى الذي عرضناه ؟ إنها التغاير: الخروج من النمطية، والرغبة الدائمة في خلق المغاير. والحداثة، في هذا المستوى، ليست ابتكارا غربيا. لقد عرفها الشعب العربي، منذ القرن الثامن، أي قبل بودلير ومالارميه ورامبو، بحوالي عشرة قرون. وهي لذلك ليست "مستوردة".

وهو يقيم الشعر بإبداعيته لا بحداثته " الإبداع لا عمر له. لا يشيخ. لذلك لا يقيم الشعر بحداثته، بل بإبداعيته. إذ ليست كل حداثة إبداعا. أما الإبداع، فهو أبديا، حديث."

ويذهب **صلاح عبد الصبور** إلى أنه لا حرج في ميدان الفن والأدب أن يتأثر اللاحق بالسابقين ويضيف إلى الخبرة الفنية السابقة جزء من خبرته الشخصية " إن الميزة الحقيقية في الفن والأدب المتحضرين أنهما تراث ممتد، يستفيد لاحقه من سابقه، ويقنع كل فنان بإضافة جزء صغير إلى الخبرة الفنية التي سبقته، وتظلله كله روح المسؤولية عن البشر والكون. ومن هنا لا يجد إليوت غضاضة في التضمين من دانتي أو بودلير".

ويتعدى تأثر الفنان بالسابقين من أمته ولغته إلى التأثر بالسابقين في ميدان الفن والتراث العالمي "إن الفنان يولد في الفن ويعيش فيه، ويتنفس من خلاله. وكل فنان لا يحس بانتمائه إلى التراث العالمي، ولا يحاول جاهدا أن يقف على إحدى مرتفعاته فنان ضال. وكل فنان لا يعرف آبائه الفنيين إلى تاسع جد لا يستطيع أن يكون جزءا من التراث الإنساني، وهو في الوقت ذاته لا يستطيع أن يحقق دوره كإنسان مسؤول في هذا الكون."

وفي حديثه عن الصراع بين القديم والحديث والتجديد الشعري يرى **يوسف الخال** من خلال مجلة "**شعر**" بأنه لا يوجد صراع بين القديم والجديد، بل هنالك شعر قديم لا بد أن يتجدد " ليس في الشعر العربي صراع بين القديم والحديث بقدر ما هنالك قديم يتجدد مع الحياة. عملية التجدد هذه لا تتم بسهولة. شأنها في ذلك شأن الولادة. نحن نجدد في الشعر، لا لأننا قررنا أن نجدد. نحن نجدد لأن الحياة بدأت تتجدد فينا، أو قل تجددنا."

وعلى مستوى القافية والوزن يدعو يوسف الخال إلى إبداع أشكال شعرية جديدة تنطلق من التراث العربي وتقتبس من التراث العالمي" القافية التقليدية ماتت على صخب الحياة وضجيجها. الوزن الخليلي الرتيب مات بفعل تشابك حياتنا وتشعبها وتغير سيرها. وكما أبدع الشاعر الجاهلي شكله الشعري للتعبير عن حياته، علينا نحن كذلك أن نبدع شكلنا الشعري للتعبير عن حياتنا التي تختلف عن حياته. من هنا كان شعراء هذا الجيل مدعوين إلى إبداع أشكال جديدة مستمدة طبعا من عبقرية اللغة العربية وتراثها الشعري، ومستفيدة إلى أقصى حد من تجارب الشعراء في العالم المتحضر"

لكن الشيء الغريب الذي قرأناه أن يستدل بعض دعاة الحداثة في الشعر استدلالا خاطئا فيه الكثير من المراوغة من خلال قطع السياق القرآني والاستشهاد ببعض الآيات دون إكمال بقية الآيات التي تصف الشعراء، حيث يقول: "الشعر تحرر للغة الإنسان وانعتاق من كل القيود. والشاعر ليس إلا هائما منطلقا خارج نفسه وخارج واقعه: (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون– الشعراء 224–225)"

ويرد رضا النحوي على هذه المراوغة موضحا: " إنه لعجب كبير أن يتحول المعنى القرآني الكريم الجلي إلى هذا الانحراف المؤذي(...) فالآيات من سورة الشعراء تعرض نوعين من الشعر: نوع يحرمه الله سبحانه وتعالى ولا يقبله ويذمه.ولذلك يرفضه الأدب الإسلامي ويرفض أسسه وفكره ونظرياته. وشعر كريم عبرت عنه الآيات الكريمة من سورة الشعراء: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) الشعراء 227"

نصوص لشعراء الحداثة:

من قصيدة "**السفر**" ليوسف الخال:

و في النهار نهبط المرافئ الأمان
و المراكب الناشرة الشراع للسفر
نهتف يا، يا بحرنا الحبيب، يا
القريب كالجفون من عيوننا
نجيء وحدنا،
رفاقنا وراء تلكم الجبال آثروا
البقاء في سباتهم و نحن نؤثر السفر،
أخبرنا الرعاة ههنا
عن جزر هناك تعشق الخطر،
وتكره القعود و الحذر،
عن جزر تصارع القدر
و تزرع الأضراس في القفار
مدنا، حروف نور تكتب السير
وتملأ العيون بالنظر.

قصيدة "**الخيانة**" لأدونيس:

آه يا نعمة الخيانة–
أيها العالم الذي يتطاول في خطواتي
هوة و حريقه
أيها الجثة العريقة،
أيها العالم الذي خنته و أخونه.
أنا ذاك الغريق الذي تصلّي جفونه
لهدير المياه،
و أنا ذلك الإله–
الإله الذي سيبارك أرض الجريمة.

إنني خائن أبيع حياتي

للطريق الرجيمة،

إنني سيد الخيانة.

قصيدة "**واجب شخصي**" لمحمود درويش:

هتفوا له: يا بطل! واستعرضوه في

الساحات.نطت عليه قلوب الفتيات

الواقفات على الشرفات، ورششنه بالأرز

والزنبق. وخاطبه الشعراء المتمردون على

القافية بقافية ضرورية لتهييج اللغة:

يا بطل ! أنت الأمل. وهو ، هو

المرفوع على الأكتاف راية منتصرة، كاد

أن يفقد اسمه في سيل الأوصاف.

خجول كعروس في حفلة زفافها.لم أفعل

شيئا. قمت بواجبي الشخصي. في صباح

اليوم التالي، وجد نفسه وحيدا يستذكر

ماضيا بعيدا يلوّح له بيد مبتورة الأصابع

يا بطل ! أنت الأمل.يتطلع حوله

فلا يرى أحدا من المحتفلين به البارحة.